# نهضة المرأة العربيـــــة

للدكتورة درية شفيق

لم تعرف للمرأة العربية قبل الإسلام نهضة ما ، ذلك أن الإسلام الذى يعيبون عليه تسامحه فى تعدد الزوجات قد جاء للحد من هذا التعدد الذى كان مطلقاً لا قيود له ولا حدود، فرأى أن يحد منه ويقصره فى حالة الضرورة القصوى على أربع زوجات على الأكثر ثم شرط لذلك شروطاً انتفت معها رغبة الراغبين فى التزوج بأكثر من واحدة .

وإذا كان الإسلام فى هذه الناحية قد أباح الزواج من أربع لضرورة اجتماعية فان مجتمعنا الحالى لم يعد يحتمل أكثر من زوجة واحدة وقلما نجد إلا فى ظروف خاصة مسلماً يبنى بأكثر من زوجة نظراً للحياة الدقيقة التى نحياها وللأوضاع الاقتصادية التى تحول دون الإسراف فى هذا الحق المشروط ، وكان فضلا من أن الإسلام وضع حداً لتعدد الزوجات فقد انتهى به الأمر أخيراً إلى الانصراف عنه .

وعاون الإسلام فى نهضة المرأة العربية فرفع من مقامها بالقضاء على عادات وتقاليد أخرى قديمة أخصها عادة وأد البنات كما جعل الإسلام من بعض النساء خبيراً وحجة فى الدين والحياة حتى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال يوماً عن السيدة عائشة ( خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء ) ولم يقل النبى الكريم هذا القول إلا وهو مؤمن بأن السيدة عائشة رضى الله عنها على خلق ودين ، وأنها قمينة بأن تكون مثلا يؤتم به ويؤخذ عنه ، فقد وضع رسول الله ثقته فى سيدة وفى ذلك نصر لكل سيدة تعرف واجبها ودينها ، ومن أعظم مزايا الإسلام التى أرست قواعد النهضة النسائية للمرأة العربية أنه شرع القوانين التى تحمى المرأة فى دنياها وتكون شخصيتها المعنوية فأصبح لها حق الزواج وحق الطلاق ،

ونصيب فى الإرث وحق فى التعلم وحرية الحياة وكانت من قبل كمّاً مهملا لا يعنى به .

ومن ظواهر نهضة المرأة العربية أن الشريعة الإسلامية السمحة كفلت لها من الحقوق وأنشأت لها من أنواع السياجات والحمايات ما لم تكفله لزميلتها الغربية شريعة أخرى ، ولسنا هنا بسبيل تعداد هذه التشاريع واستعراض حقوق المرأة ومكانها فيها ولكننا نتناول مكان المرأة من التشريع الإسلامى ومكانها من القانون المدنى الفرنسى من ناحية هى فصل الخطاب فى تطور نهضة المرأة العربية ؛ هذه الناحية هى أهلية كل من الزوجة المسلمة والزوجة الفرنسية فى التصرف فى مالها الخاص وإبرام ما يقتضيه ذلك من العقود والمعاملات ، فأما الشريعة الإسلامية فقد كفلت للزوجة حقها فى ذلك مطلقاً من كل قيد فهى تستطيع أن تبيع من مالها أو تشترى من مالها ويقع كل ما تجريه فى ذلك من التصرفات سليما يقره القانون ولا مطعن عليه إلا فيما يتصل بذلك من أحكام القانون العام فهى من هذه الناحية تقف مع الرجل على قدم المساواة لا يسبقها ولا يتقدم عليها . أما الزوجة الفرنسية فانها تفقد بالزواج جدارتها لإجراء هذه التصرفات إذ أن ما تقدم عليه منها لا يقع صحيحاً إلا إذا أقره زوجها ، فالزواج يحد من أهلية المرأة الفرنسية ويجعل للزوج فيما يتعلق بطائفة من تصرفاتها نوعاً من الوصاية عليها ، لعلها من حيث الكنه والجوهر لا تختلف عن تلك الوصاية التى شرعها القانون لحماية ناقص الأهلية أو عديمها .

* * *

وإذن فنهضة المرأة العربية يرجع تاريخها إلى بزوغ فجر الإسلام وكان من المنتظر بعد أن نشرت هذه الشريعة ألويتها وأعلامها على البلاد العربية أن تمضى النهضة النسائية فى الشرق العربى قدماً نحو النضج والاستواء ، ولكن عوامل مصطنعة حالت دون تفسير السماحة التى انطوى عليها الدين الكريم ، فوقفت عصور الجهالة دون تقدم تلك النهضة وحالت بالعنف والشدة دون بلوغ المرأة العربية مكانها الصحيح من الحياة العامة والخاصة وأصبحت المرأة نزيلة الحريم لا تعرف من أمرها شيئاً .

ثم يضفى محمد على الكبير على مصر والشرق العربى لوناً جديداً من الحياة فينشىء بين مدارسه مدرسة للبنات كانت طالباتها من المصريات والسودانيات والحبشيات .

ولأول مرة بعد عدة قرون تنظم جماعة من النساء لتلقى الدروس الدينية والمدنية على السواء .

ثم يقبل عصر اسماعيل فاذا النهضة النسائية تأخذ مكانها بين النشاط الذى دب فى أوصال الحياة المصرية وإذا مدارس البنات تتعدد وينافس فى إنشائها زوجات الخديو ، يرعى الأمير بنفسه هذه النهضة حتى تتعلم فتيات مصر وينشأ جيل من الزوجات الصالحات العارفات أقدارهن وكان فى ظن الخديو أن هذه النهضة من شأنها أن تعاون على خلق جيل جديد من النساء ينشىء الرجال التنشئة الصحيحة المفيدة .

وقد رَقِيَتْ الحياة فى عهد اسماعيل فشهدت قصوره تطوراً فى النظم الاجتماعية لم يعرف فى مصر الحديثة ؛ شهدت قصوره الحفلات الكبيرة الرائعة وشهد عصره أذواق الملابس الجديدة حتى ألوان الطعام تنوعت ودخل فيها جديد وقد حدثتنا الوثائق المكتشفة أخيراً أنه اشترك لزوجاته وسيدات قصوره فى سبع مجلات للأزياء فكانت نماذج الأزياء فى مصر والشرق العربى تخرج من قصوره وهذه العناية بشئون الناس وإن كانت خاصة إلا أن وراءها قلباً كبيراً يعرف للمرأة حقها ، ونوايا طيبة بدا أثرها على مر الزمن .

والنهضة النسائية فى عصر اسماعيل لم تأت من فوق ان صح التعبير أى لم تكن من اسماعيل وحده بل رأى وجوبها بعض ذوى الرأى من المصريين وفى مقدمتهم رفاعة رافع الطهطاوى وهو فلاح أصيل نشأ فى مدينة من مدن الصعيد ثم درس فى الأزهر وتثقف فى فرنسا وكان حجة فى كثير من العلوم والمعارف وأستاذاً من أساتذة الصحافة فى الشرق العربى إذ كان محرراً للوقائع المصرية ومشرفاً على تحرير ( روضة المدارس ) . وقد ساهم هذا الرجل فى تطور النهضة النسائية العربية بما بثه من أفكار وبما نشره من كتب عن تعليم البنت وتوجيهها .

وإذا نحن أسرفنا قليلا فى التحدث عن النهضة النسائية المصرية فإننا نتحدث عن مرآة صادقة للنشاط النسائى فى الشرق العربى كله .

ويجدر بنا ونحن نعدد نهضة المرأة العربية أن نذكر فضل أصحاب الفضل على هذه النهضة فقد مضت حياة المصريات منذ أواخر عهد اسماعيل إلى نهاية القرن التاسع عشر رتيبة لا حياة فيها حتى وجد أنصار للمرأة من خاصة المثقفين المصريين وفى مقدمتهم قاسم أمين وانه لحديث معاد إذا نحن فصلنا فى الجهد الذى بذله قاسم لتحقيق الهدف السامى ، هدف نهضة المرأة العربية عامة والمصرية خاصة وقد وضع الرجل عدة كتب ونشر كثيراً من المقالات يدعو فيها إلى تعليم المرأة وتحريرها وقد بسط فى كتاباته وجوه الإصلاح وما ينبغى إجراؤه لتيسير هذا الإصلاح وتحقيقه وذلك بأن تحصل المرأة على قسط أساسى من التعليم كى تقوم بمهمتها قياماً مرضياً فان التعليم كما يقول يجعلها قادرة على تنظيم بيتها وميزانيتها وتربية أولادها كما أنه يكون دعامة من دعائم الوفاق بينها وبين زوجها فالرجل المتعلم لا يمكن أن يشعر بسعادة صحيحة إلا مع امرأة يرتفع مستوى ثقافتها إلى مستوى قريب من مستواه ثم تناول مسألة الحجاب والحريم فهدم وجهة النظر القائلة بهما وبين أن روح الإسلام يتطلب ابعاد ما يقترن بهذا الدين الحنيف من التقاليد الاجتماعية التى تحول دون الوصول إلى معناه الحقيقى ، وقد كان الجيل يعتقد أن الحجاب من مقتضيات الدين والدين براء من ذلك ، فالحجاب ضد التعاليم الدينية لأنه يحرم المرأة من العلم ، والعلم واجب على كل مسلم ومسلمة . ثم كان الحجاب عدواً لحرية المرأة ، والحرية أول شرط من شروط الشرف فتجريد المرأة من الحرية يعادل تجريدها مما لها من قيمة انسانية ومعنوية

وما كاد قاسم أمين يظهر فى هذا الميدان حتى بدا فى الأوساط المصرية تياران مختلفان فى الآراء ، احدهما يؤيده والآخر يناهضه ، وكانت الأغلبية الساحقة لا تميل إلى تحرير المرأة وذلك طبيعى فى جيل اعتاد رجاله أن يروا فى المرأة متاعاً أو حيواناً أليفاً يسهل قياده ، لذلك حاربوا فكرة قاسم أمين الذى يطالب بالحد من اختصاصهم ويدعو إلى سلب سيطرتهم ويرفع المرأة إلى جانبهم .

ومنذ بدأت المعركة بين قاسم أمين وخصومه والمرأة تنال حقاً بعد حق

حتى أنه فى عشرين سنة تقريباً من جهاد أنصار المرأة أفلحت المرأة المصرية فى أن تنتقل من دائرة الحريم إلى دائرة المحاماة ، وانتقلت من حياة تكاد تخلو من الحياة إلى المطالبة بالحقوق البرلمانية ، انها بخطوة كبيرة انتقلت لا فى مصر وحدها بل فى الشرق العربى كله من الجهل التام إلى النجاح الباهر فى الدراسة ، ومن البيوت المغلقة إلى وسط المجتمع الصاخب ، ومع أن الخطوات التى قطعتها المرأة فى سبيل نهضتها خطوات عظيمة إلا أن الملاحظ على المرأة العربية بوجه عام أنها تحتفظ تماماً بشخصيتها وأنوثتها فى معمعان الحياة العامة .

ولا يمكن ونحن نتحدث عن نهضة المرأة العربية أن ننسى السيدة هدى شعراوى التى أخذت بشخصيتها القوية ترشد نساء الشرق العربى إلى الطريق القويمة وطفقت تعمل فى جد وجلد على إزالة الحواجز والتغلب على العقبات غير مكترثة بما تسمعه من ذم ونقد ولم يقم فى سبيلها عائق يحول دون بلوغ غايتها وقد كانت تمثل المرأة العربية عامة والمصرية خاصة ولم تحجم عن بذل أى مجهود أو تضحية للوصول إلى الهدف الرائع الذى وضعته نصب عينيها . وقد أنشأت لذلك اتحاداً كافح فى سبيل تقدم المرأة وانتزع ثقة الرجال فيها انتزاعاً . فاذن للبنات بالالتحاق فى الجامعة وكان ذلك نصراً عظيما للمرأة فى مصر ، ومضت تساهم هدى شعراوى فى النشاط الدولى النسائى ولم تكن فى الحقيقة تمثل فى الهيئات الدولية النشاط النسوى المصرى وحده بل كانت تمثل نشاط الشرق العربى فى هذه الناحية وبذلك أصبح للاتحاد النسائى طابع وطنى وطابع دولى . وقد تكلمت هدى هانم شعراوى فى أكثر من عشرة مؤتمرات تدافع عن حقوق المرأة العربية مبينة بالدليل المادى استعدادها ونجاحها وتفوقها .

وليس فى مقدورى وأنا أروى صورة لنهضة المرأة العربية أن أتعقب التطورات التى أصابت تلك النهضة فى البلاد العربية بلداً بعد بلد فان المعروف أن الهيئات النسائية المصرية تضم بين أعضائها أعضاء من البلاد العربية يقمن فى بلادهن بما تقوم به الهيئات المصرية حذوك الرأس بالرأس ويختلف مدى النجاح فى تلك البلاد ، ولكن هناك أشياء نجحت فيها المرأة العربية فى كل مكان فمثلا تنال المرأة العربية حق التعليم بلاقيد ولاشرط فى معظم الممالك والجمهوريات

العربية ، وتتساوى المرأة والرجل فى معظم الوظائف العامة . وقد نجحت المرأة السورية خاصة فى بلوغ الحق السياسى فأصبح لها أن تبدى رأيها فى الانتخابات العامة وتختار المرشحين لمجلس النواب كالرجل تماماً ، وكذلك فى لبنان .

وفى مصر اليوم حكومة أعلن رئيسها فى صيف عام ١٩٤٩ من برنامجه منح النساء حق الانتخاب ، ولا تقصد المرأة العربية بمطالبتها بحقها السياسى التدخل فى الأمور السياسية أو الحزبية وإنما تطالب بذلك لتستطيع الاشتراك فى التشريع والتنفيذ وخاصة ما كان متعلقاً منها بشئون المرأة والطفل .

وإذا أمعنا النظر فى نهضة المرأة العربية نجد أنها ليست طبلا كما يزعم الزاعمون فان الأجيال الناشئة الآن من تكوين أمهات تعلمن أو تثقفن ، وان حياتنا الاجتماعية التى خلت إلى حد بعيد من الدجل والخرافات مصدرها أن مستوى المرأة الفكرى فى البلاد العربية قد ارتفع وأن تلك المؤسسات الضخمة لرعاية الأطفال أو رعاية المرضى أو العجزة فى البلاد العربية جميعاً تكاد تكون كلها من صنع المرأة وحدها . وإذا رجعنا إلى حالة البلاد العربية منذ خمسين سنة لا نجد هذه الإنسانية المتغلغلة فى نفوس الناس ذلك لأن المرأة كانت محرومة من المساهمة فى الأعمال العامة متروكة وراء الجدران تقضى أيامها فى تافه القول والعمل واليوم نجد الطبيبات فى الريف والمدن يساهمن مساهمة فعالة فى كفاح الأمراض وكان ذلك أمراً عسيراً مع الرجال سواء منهم الجهلاء أو المتعلمون فان الطبيبة تستقبل فى كل بيت وقلما كان هناك بيت يقبل زيارة الطبيب لمعالجة نسائه وبناته واليوم فى كل قرية ومدينة أكثر من مدرسة ومؤسسة اجتماعية تنافس المرأة الرجل فى خدمتها ورعايتها واليوم لا تكاد تخلو صحيفة من النساء العاملات فيها ولا تكاد تخلو مكتبة من كتاب مؤلفته امرأة ولا تكاد تخلو محكمة من محامية تدافع عن العدل وتنافح فى سبيل الحقيقة .

وإذن فنهضة المرأة العربية ليست حبراً على ورق وليست حديثاً معاداً بل هى حقيقة واقعة لا ينكر فضلها وينبغى أن تذكر مآثرها . وإذا كان هناك أحد فى شك من هذه النهضة فلينظر إلى بيته فسوف يجد إلى جانبه زوجاً وابنة مساويات له فى النظر إلى الحياة وهذا وحده لم يكن معروفاً منذ خمسين سنة حين كانت المرأة أو البنت معطلة عن العلم خلواً من كل تفكير سليم .